

هل للتبـر قـواعـد عـند النـطـق ؟

أ. الدكتور

رشيد عبد الرحمن العبيدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

موضوع النبر : وهو في اللغة رفع الصوت ، وتمييزه من سائر الأصوات المصاحبة له في الكلمة المنطوقة ، تناوله الباحثون الصوتيون ، وعدوه مبحثاً مهماً من مباحث علم الأصوات إلى جانب مباحث المماثلة والمخالفة والمقاطع الصوتية والتبدلات وما يتصل بذلك . ولكن هذا الموضوع لم يتفق الباحثون في تحديد مفهومه ، ولم يبينوا إن كان للصوت المنبور - في النطق - موضع محدد دائم ، أم هو منتقل على وفق مراد المتكلم ، وإن كان له موضع ثابت لا يتغير فهو - إذن - علم له أصوله ومنهجيته ، وأن كان منتقلاً - على وفق مراد المتكلم - فهو إذن - يعتمد على الذوق والاختيار ، لأنه حينئذ يدخل في باب أساليب التعبير ، إظهار للمعاني التي يرمي إليها المتكلم .

ثم هو من ناحية أخرى يختلف في القوة والضعف والتوسط ، فمن الأصوات ما يكون نبراً قوياً ، ومنها ما يكون متوسطاً ، ومنها ما يكون نبراً خفيفاً ، وهذا الأخير هو نبر الصوت بشكل طبيعي دون الضغط عليه .

وزاد باحثون آخرون نبوراً أخرى ، كنبر الطول ونبر التضعيف ، فضلاً عن نبر الهمز الذي هو المنطلق لهذا المبحث عند باحثي الأصوات في العربية ، وباحثي الأصوات المعاصرين ، لان العرب عرفوا (الهمزة) بأنها نبرة في الصدر^(١) .

وظاهرة النبر في العربية معروفة عند علمائنا ، ولكن تحديد مفهومها لم يكن دقيقاً - كما هي معرفة عند باحثي الأصوات المحدثين ، ولذلك نلحظ اختلافاً في تفاوتها .

فهذه الظاهرة الصوتية في اللغات تظهر باختلاف نسبي بحسب طبيعة اللغة وخصائصها النطقية التي تتمتع بها ، ويميل المتكلم عادةً في أثناء نطقه الى الضغط على بعض المقاطع الخاصة في الكلمة ليجعل هذا المقطع واضحاً جلياً مسموعاً أكثر من غيره من مقاطع الكلمة ، والسبب في هذا أن نبر هذا المقطع المخصوص يبغى المتكلم فيه بيان أسلوب من أساليب الكلام المتنوعة التي تؤثر في دلالة التراكيب تأثيراً كبيراً ، وقد اختلف الدارسون المحدثون في تعريفها وتحديد مفهومها فإبراهيم أنيس يرى أنه : (نشاط في جميع أعضاء النطق في وقت واحد)^(٢) ، في حين يراه الدكتور تمام حسان بأنه : (وضوح نسبي لصوت أو مقطع ، إذا قورن ببقية الأصوات والمقاطع في الكلام)^(٣) .

(١) ينظر : المعجمات ، الصحاح : (نبر) و (همز) ، التهذيب واللسان ، والتاج ، وغير ذلك .

(٢) الاصوات اللغوية : ١٦٩ .

(٣) مناهج البحث في اللغة : ١٦٠ .

ويقول كمال بشر : (معنى هذا أن المقاطع تتفاوت فيما بينها قوة وضعفاً ، فالصوت أو المقطع المنبور ، ينطق ببدا طاقة أكثر نسبياً ويتطلب من أعضاء النطق مجهوداً أشد ، لاحظ الفرق مثلاً في قوة النطق وضعفه بين المقطع الأول في (ضرب) والمقطعين الأخيرين في (ضَ / رَ / بَ) تجد (ض) ينطق بارتكاز أكبر من زميليه في الكلمة نفسها^(١) . هذا يرجع إلى أن الضاد صوت قوي مطبق وضع في أول الكلمة ونطقه يحتاج إلى شدة وقوة في إخراجها .

فالنبر إذن (STRESS) عند المحدثين : علو في بعض مقاطع الكلمة (بالقياس إلى المقاطع الأخرى) يكون مصحوباً أحياناً بارتفاع في درجة الصوت (pitch) وينتج هذا العلو من زيادة اندفاع الهواء الخارج من الرئتين ، حين يشد تقلص عضلات القفص الصدري^(٢) . أما ارتفاع درجة الصوت ، فتنتج من ازدياد النشاط العضلي في الحنجرة عند نطق المقطع المنبور^(٣) .

وهذه الظاهرة الصوتية ليست غريبة عن الصوت العربي ولا بعيدة عنه فاللغة العربية لغة نبرية ويتضح هذا من خلال مطالعاتنا للخواص الصوتية للمفردة العربية من همز وإدغام وإشباع وما إلى هذا ، ومع أننا لا ننكر وجود النبر في اللغة العربية لا ندعي أن علماء العربية وعلماء الصوت خصوصاً قد عرفوا هذه الظاهرة بكل جزئياتها كما هي في البحث الصوتي الحاضر ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا : إن الباحث في هذا الميدان بحثاً دقيقاً يستطيع أن يصل إلى أقرب حقيقة تؤكد وجود هذه الظاهرة في مادتها واصطلاحها ويبدو لنا هذا جلياً واضحاً من خلال البحث عن مدلولات مادة (نبر) فهي تعني رفع الصوت ، ونبرة المغني : رفع صوته ، ومنه سمي المنبر لارتفاعه وعلوه^(٤) .

وتعني أيضاً (همز) ، والنبر بالكلام : الهمز ، والنبر مصدر نبر الحرف بنبره نبراً (همزة) وفي الحديث : قال رجلٌ للنبي ﷺ : (يا نبيء الله فقال ﷺ : لا تنبر باسمي ، أي : لا تهمز)^(٥) ومادة (همز) في المعجم العربي بمعنى (ضغط) ، والهمز مثل الغمز والضغط ومنه الهمز في الكلام لأنه يضغط^(٦) فالهمز هو الضغط ، وهو النبر وهو الغمز ولا فرق . ويدلنا هذا على وجود علاقة وثيقة بين النبر والضغط ، لأن النبر هو ضغط على مخرج الحرف أثناء النطق به أو على مقطع صوتي من كلمة ، ويؤكد صحة هذا القول إن

(١) علم اللغة العام (الاصوات) : ١٢٠ .

(٢) في البحث الصوتي عند العرب ، د . خليل العطية : ٦٢ .

(٣) دراسات في علم أصوات العربية ، جان كانتينو : ١٠٤ .

(٤) ينظر : اللسان ، مادة (نبر) ، ينظر : مختار الصحاح ، مادة (نبر) .

(٥) اللسان ، مادة (نبر) .

(٦) اللسان ، مادة (همز) .

كلمة (stress) وما يقابلها في الفرنسية : (accent) تقابلان كلمة (النبر) في العربية وتدلان على معنى الضغط^(١).

والنبر على ثلاثة أنواع كما حددها المحدثون^(٢):

أ - نبر الهمز : وهو نوع من أنواع النبر يقع على المقطع المهموز بنبر الهمزة ، وهو موجود في اللغة العربية وخصوصاً في لهجة (تميم - أسد - قيس)^(٣) فمثلاً كانوا يقولون (ذئب) و (مؤمن) في حين أن أهل الحجاز يقولون (ذيب) و (مومن)

بتخفيف الهمزة^(٤) ، ويمكن متابعة مثل هذه الأمثلة في كتابنا (أبحاث ونصوص) . أما نبر التضعيف أو التوتر فموجود في العربية ، ويتمثل في لغة من يسهل الهمزة في مثل

(مقروءة) ، وكذلك لفظ (جبال) تصبح (جبال) بالتخفيف ثم تضعف الياء ، فتصبح (جيل) .

والتضعيف أو الإدغام فيه ضغط على الصوت المُضعف عند النطق ويدلنا على هذا تعريف سيبويه للإدغام : (يقع بين الحرفين اللذين تضع لسانك لهما موضعاً واحداً لا يزول عنه)^(٥).

ويكون - عادة - هذا إيضاحاً للدلالة المتحصلة من تضعيف الصوت في الكلمة وقد يكون دون فرق دلالي ، فمثال النبر الذي يؤدي إلى بيان الفرق الدلالي مثلاً (كتب) يدل على فعل الكتابة المعروف في حين أننا لو ضعفنا صوت (الراء) من الفعل (درس) لتغيرت الدلالة

(فدرس) - بتضعيف الراء ، يدل على التكثر في تدريس غيره والمبالغة وكذا كل فعل على زنة (فعَل) كعلم - أكثر من تعليم غيره - وكذا : فهم ، ورتب .

أما النوع الذي يقع فيه نبر (التضعيف) أو التوتر ولا يؤدي أي نوع من الفروق الدلالية فمثاله (مقروءة) في لغة أهل الحجاز .

وقد ذكر لنا أبو الفتح ابن جني نوعاً من أنواع النبر وإن لم يسمه نبراً وهو ما رواه عن الفراء ، أن بعض العرب تقول : أكلت لحمًا شاةً ، أراد : (لحم شاةٍ) فمطل الفتحة فأصبحت أَلْفًا^(١)

(١) ينظر : الفراءات القرآنية في ضوء علم الحديث ، د. عبد الصبور شاهين : ٢١ .

(٢) ينظر : المصدر نفسه : ٢٦ .

(٣) ينظر : الكتاب : ٢ / ١٦٩ ، معاني القرآن ، للفراء : ٣ / ١٧١ .

(٤) ينظر : أبحاث ونصوص في فقه اللغة ، د. رشيد العبيدي : ١٥٨ .

(٥) الكتاب : ٢ / ٤٠٧ .

وهذا المطل كثير في كلام العرب ، يدل على أنهم يتصرفون - كثيراً - في كلامهم
وإن خرج عن القياس ، قال الشاعر :

إذا العجوز غضبت فطلق
فمطل حركة (ترضاً) المجزوم فأصبحت ألفاً .
ولا ترضاها ولا تملق

يقول ابن جني : (وكذلك الحركات عند التذكر يمطلن ... وذلك نحو قولهم عند التذكر
مع الفتحة في (قمت) : قمتا أي قمت يوم الجمعة ونحو ذلك ، ومع الكسرة : أنتي ، في :
أنت عاقلة ونحو ذلك ، ومع الضمة : قمتو في : قمت الى زيدٍ ونحو ذلك)^(٢)
أما النوع الثالث من أنواع النبر عند المحدثين فهو نبر (الطول) .

وهو موجود في العربية وميدانه القراءات القرآنية بشكل عام التجويد بشكل خاص ،
ومثاله (نستعين) فالمقطع (عين) من الكلمة ينبر نبر طول وكذلك كلمة (ضالين) فالمقطع
(ضا) نبر طول ، هذا ما يراه أكثر الباحثين في علم الصوت الحديث .
والذي أراه أن هذا النوع من أنواع النبر مخالف لطبيعة النبر التي تتسم بالضغط وإنما
هو أقرب للتغيم منه إلى النبر في (نستعين) لسببين اثنين هما :

١ - إن نبر المقطع (عين) من (نستعين) نبر طول ، ناتجٌ من الوقف العارض
للسكون وهو ظاهر في مد الياء ، بطول غير متفق عليه بين القراء ، في مقداره وانتقوا في
حكمه ، فمنهم من يمهده مقدار حركتين ومنهم من يمهده مقدار أربع حركات ومنهم من يمهده
مقدار ست حركات ، فهو - إذن - جائز المد في هذه المقادير ، ولما كان النبر ينقسم على
(نبر قوي) و (نبر متوسط) و (نبر ضعيف) فأى نوع من هذه الأنواع الثلاثة هذا المد
في الياء ؟

ويبدو أن تسميته بالنبر تسمية غير صحيحة ، ويمكن أن ندرجه في ضمن التغيم الذي
يناسب الفاصلة القرآنية التي تحقق نوعاً من الجرس الموسيقي والتناسق الصوتي فيعمد القارئ
إلى مد حرف اللين بالمقدار الذي يحقق له هذا النغم وهذا ما تنبه عليه الباحثون الذي تناولوا
الفواصل القرآنية^(٣) بالبحث والدرس .

أما (الضالين) فقد اتفق القراء على حكمه ومقداره وهو ست حركات وجوباً ومع هذا
لا أراه نبراً لأنه يخالف مفهوم النبر ويتضح هذا من خلال النطق ، فأصل الضالين هو النقاء
ساكنين هما الألف والحرف الساكن (اللام) ، أي : اللام الأولى من حرف اللام المضعف ،
وهذا المد إنما جيء به ليسوغ النقاء الساكنين فهو فاصلة زمنية تفصل الصوت الأول الساكن

(١) الخصائص : ٣ / ١٢٣ ، بتصرف .

(٢) الخصائص : ٣ / ١٢٩ .

(٣) ينظر : كتاب الفاصلة القرآنية ، محمد الحساوي .

عن الصوت الساكن الذي يليه ولو رجعنا إلى قراءة أيوب السخثياني لهذه الكلمة لوجدناه يقرؤها بالهمز أي : (ولا الضالين) بالنبر (نبر الهمز) أما قراءتها بالألف ، فهو الأصل فيها ، وتحويل الألف إلى الهمز هو الذي طرأ على الأصل في قراءة السخثياني .

وهذا يعني إن من قرأ هذه القراءة (الضالين) بالهمز أراد أن يتخلص من الساكنين فحرك الألف فتحوّلت إلى أقرب حرف لها وهو الهمزة لأن الألف ضعيف لا يتحمل الحركة والهمزة جلد يتحمل الحركة^(١) .

وعلى هذا يخرج (دأبه) و (شأبه) وغيرها من الكلمات المهموزة ، وأرى أن القلقلة في حروف (قطب جد) هي نوع من أنواع النبر فحينما نقول : (محيط) بقلقلة الطاء ، وهذه القلقلة هي نبرها ، لأننا نضغط عليها ، وكذلك قلقلة أخوانها ، أي : على مخرج الحرف من خلال تحقيق صفته ، هذه القلقلة : هي صوت يلحق آخر الحروف : (ق ط ب ج د) عند الوقف عليها ، وقد أشار إليها علماء التجويد بأنها كالنبرة .

ومن الباحثين المحدثين من ينكر على العربية وجود النبر فيها أمثال برجشتر أسر حيث يقول : (... أنه لا نص نستند إليه في إجابة مسألة كيف كان حال العربية الفصيحة في هذا الشأن ، ومما يتضح من اللغة نفسها ، ومن أوزان شعرها ، أن الضغط لم يوجد فيها أو لم يكده يوجد ، وذلك أن اللغة الضاغطة ، يكثر فيها حذف الحركات غير المضغوطة وتقصيرها ، وتضعيفها ، ومد حركات مضغوطة ، ورأينا أن كل ذلك نادر في العربية ...)^(٢) .

وكلام برجشتر أسر المذكور لا حجة له في إنكار وجود النبر في العربية لأن هذه الظواهر الصوتية التي عدها سمات للغة النبرية موجودة في اللغة وخاصة في القراءات القرآنية ، ويبدو أن برجشتر أسر لم يطلع على القراءات اطلاقاً حتى يرى ما في هذه الكنوز من بيان وإيضاح لمثل هذه الظواهر فتقصير الحركات موجود وبشكل كبير جداً يكاد يكون عند بعض القراء مثل حمزة وأبي عمرو بن العلاء برواية الدوري وهو ما يسمى بـ (الاختلاس)

وهو ذهاب بعض الحركة ويقع كثيراً مع (الكثرة) في مثل قوله تعالى : {فَتَوَبُوا إِلَىٰ بَارئِكُمْ} قرأها أبو عمرو بن العلاء برواية الدوري باختلاس الكسرة وهو يقابل تقصير الحركات (غير المضغوطة) التي ذكرها براجشتر أسر ، لأن الكسرة هنا غير مضغوطة (أي : غير منبورة) لذلك مال بعض القراء إلى اختلاسها .

ويقع كذلك الاختلاس مع (الضمة) في مثل قوله تعالى : {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ} قرأها أبو عمرو برواية الدوري باختلاس الضمة ، هذا فيما يتعلق بتقصير الحركات وهو ليس نادراً بل

(١) ينظر : شرح المفصل : ١٢٩ / ٩ - ١٣٠ .
(٢) التطور النحوي : ٤٦ .

هو موجود في قراءة أبي عمرو بن العلاء وغيره كثيراً وإنما هو في القرآن موجود خصوصاً في مثل هذه المفردات وفي هذه القراءات المذكورة التي هي من السبعة .

وما نقوله في اختلاس الحركة ، نقوله - أيضاً - في حذف الحركات تخفيفاً في القراءات القرآنية وخصوصاً في قراءة نافع المدني برواية ورش وهو ما يسميه سيبويه : (تخفيف الهمز بالحذف)^(١) وما يسميه أهل القراءات بالنقل أي نقل الحركة في مثل قوله تعالى : {وَالأَرْضِ} نقرأ : (ولرض) بإسقاط الهمزة ونقل حركتها للحرف الذي قبلها بل إن هذه القراءة تؤكد لنا ظاهرة أعمق من ما ذكر براجشتر أسر ، وهي إسقاط الحرف (الهمزة) وما عليه من حركة ثم تنقل الحركة للحرف الذي قبلها حتى لا يلتقي ساكنان وهو أيضاً ليس بنادر ، لأن ورشاً (رحمه الله) يقرأ كل مثال يحاذي هذا بهذه الطريقة (النقل) في جميع القرآن .

أما تضعيف الحركات ومطها ، فقد مضى معنا كثير في كلام العرب ، من رواية ابن جني عن الفراء أن بعض العرب تقول : أكلت لحمًا شاة... ولعل أوضح ما يدلنا على وجود النبر في العربية وخاصة في القراءات القرآنية ظاهرة (السكت) وهي السكت على الحرف الساكن قبل الهمز المتحرك ، وهو موجود عند جميع القراء ، سواء ما ورد في كتاب (طيبة النشر التي ذكرها الإمام الجزري) أم عن طريق الشاطبي ، وعنده سكتات أخرى في قوله تعالى : {مَنْ رَأَى} القيامة ، و {بَلْ رَأَى} وهي سكتات تحقق معاني يقصد إليها القارئ ، فالغاية منها تمييز الدلالة عن طريق السكت لان الراء ليست حرفاً نبرياً لأنه من حروف (لن عمر) المتوسط بين الشدة والرخاوة ، ويدلنا هذا السكت على الحرف الساكن مثل الهمزة في قوله تعالى : {وَالأَرْضِ وَصَعَهَا لِلأَنَامِ}^(٢) ، على وجود النبر في الهمزة الذي يتحقق بصورة واضحة عن طريق السكت على اللام ، وذلك للاستعداد لنطق الهمزة لأنها حرف صامت جلد والله أعلم .

المصادر والمراجع

(١) ينظر : الكتاب : ٢ / ١٦٥ .
(٢) سورة الرحمن : الآية (١٠) .

- ١ - أبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية ، د. رشيد العبيدي ، بغداد ، ١٩٨٨ .
- ٢ - الأصوات اللغوية ، د. إبراهيم أنيس ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط٥ ، ١٩٧٩ .
- ٣ - التطور النحوي للغة العربية ، براجشتر أسر ، أخرجه وصححه د. رمضان عبد التواب ، القاهرة ، ١٩٨٢ .
- ٤ - الخصائص ، لابي الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : الشيخ محمد علي النجار ، دار الفكر
- ٥ - دراسات في علم أصوات العربية ، جان كانتينو ، ترجمة : صالح القرماوي .
- ٦ - شرح المفصل ، لابن يعيش النحوي ، دار الفكر .
- ٧ - العربية والبحث اللغوي المعاصر ، د. رشيد العبيدي ، ط المجمع العلمي ، بغداد .
- ٨ - علم اللغة (الأصوات) ، د. كمال بشير ، ط ، مصر .
- ٩ - في البحث الصوتي عند العرب ، د. خليل العظيمة ، سلسلة الموسوعة الصغيرة ، بغداد .
- ١٠ - القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ، د. عبد الصبور شاهين ، مكتبة الخانجي القاهرة .
- ١١ - الكتاب ، سيويه ، بولاق ، ١٣١٦هـ .
- ١٢ - لسان العرب ، لابن منظور الإفريقي ، دار الفكر .
- ١٣ - مباحث في علم اللغة واللسانيات ، د. رشيد العبيدي ، ط: دار آفاق .
- ١٤ - مختار الصحاح ، للرازي ، دار الفكر .
- ١٥ - مدخل الى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، د. رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٥ .
- ١٦ - معاني القرآن ، لابي زكريا الفراء ، تحقيق : محمد علي النجار ويوسف نجاتي ، عالم الكتب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٨ .
- ١٧ - مناهج البحث في اللغة ، د. تمام حسان ، القاهرة ، ١٩٥٤ .